مناهج التغريب وتطبيقاتها على الثقافة العربية الإسلامية
دراسة تحليلية نقدية

أ.د. ميلود حميدات

جامعة الأغواط- الجزائر

الملخص:

يتناول مقالنا هذا موضوعا في غاية الأهمية، إنه موضوع مناهج وأدوات البحث التي استخدمت من طرف المستشرقين، مع قضايا الفكر الإسلامي، والتي بدا لنا أنها أقحمت قسرا في غير ميادينها، ووُظّفت عمدا دون غايتها التي وُجدت لأجلها، إذ عمل أساطين التغريب والغزو الفكري على تحوير تلك المناهج، لخدمة أغراض كانت في أغلبها تسيء إلى قضايا الفكر الإسلامي. والغريب أن هذه الرؤية التغريبية انطلت على بعض مفكرينا، فسقطوا بوعي أو بدون وعي تحت تأثير هذه النزعة التغريبية، معتقدين أن ذلك من صميم المنهج العلمي، فدافعوا عن بعض هذه الأفكار، وتبّوا بعض أطروحاتها.

وفي هذا المقال محاولة تتبعية تحليلية نقدية، لأهم هذه المناهج التي عالجت موضوعات الفكر الإسلامي، ممثّلين لأهم تطبيقاتها التعسّفية، مبرزين مواطن الخلل في استخداماتها، ومنّبهين إلى ضرورة احترام متطلّبات المنهج العلمي النزيه، والتزام مبادئ الموضوعية، وتجّنب الذاتية والتعسّف في اطلاق الأحكام، التي درجت عليها مؤسسات التغريب والغزو الفكري الغربية، عندما يتعلق الأمر بقضايا الفكر العربي الإسلامي.

Abstract:

This article deals with an extremely important topic, it is the subject of research methods and tools used by the orientalists with the subjects of the Islamic culture, which seemed to us that it was not in their respective and deliberately committed areas intended for her endless. As orientalists have modulated approaches purposes primarily offensive to Islamic issues. Strange that this orientalist vision has convinced some of our thinkers, who fell consciously or unconsciously influenced by this trend, believing that in the heart of the scientific method, they defended and supported some of these false ideas.

In this article, try by a critical analytical study, addressing the most important of these methods of studies that addressed the themes of Islamic thought, representatives of the most arbitrary applications, highlighting weaknesses in its use and so alert to the need to respect the requirements of the scientific method and the fair principles of objectivity and avoid subjectivity and arbitrariness in the judgments that the institutions of Western alienation and the cultural invasion practice when it comes to issues of Islamic thought.

المقدمة:

أن المناهج المستخدمة لا تكشف مباشرة عن صورتها، وإنما تتخفّى تحت مصطلحات مغالِطة (كالموضوعية والعلمية والدقة..)، بينما يكشف تحليل طريقة استخدامها عن تعسف وتجاوز كبيرين.

إذ تّم استخدام المنهجية العلمية في غير مكانها، فطُبقت مثلا على قضايا شاذة أو معزولة، ثم عُمّمت النتائج على الكل، رغم أن تلك النتائج لا تصدق إلا عرضا، ولم يكن مستخدمو تلك المناهج يستهدفون البحث عن الحقيقة، وفق أصول المنهج العلمي الدقيق، وإنما كانت تحركهم أهداف مشبوهة، وأفكار مسْبقة يعملون على إثباتها بتعسف ظاهر، يجافي منطق البحث النزيه، وأصول الموضوعية العلمية.

الاشكالية التي يعالجها مقالنا هي ما مدى موضوعية المناهج المستخدمة في معالجة قضايا الفكر الإسلامي؟ وكيف استخدمت؟ وما هي المجالات التي تناولتها؟ مع اننا نقر بأنها مناهج في العلوم الانسانية إلا أنها تستخدم بشكل متعسف، وبشكل غير علمي. فالمنهج خطوات مضبوطة يتبعها الباحث ويحترمها للوصول إلى نتيجة، تكون صحيحة ودقيقة كلما التزم الباحث بتطبيق صحيح للخطوات، ومتى كانت الموضوعات قابلة لتطبيق تلك المناهج عليها، كما يتطلب الامر أيضا توفر الموضوعية والنزاهة في الباحث، ويكون الأمر أكثر إلحاحا حين يكون الموضوع من العلوم الإنسانية، لخصوصيتها وتشعب عناصرها، وصعوبة التجريب فيها.

و مفهوم المنهج لغة من نهج أي سار في طريق واضح بّين، والمنهج أو المنهاج وهو السبيل، وقد جاء في القرآن الكريم:﴿ **لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنْكُم شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا.**﴾[1]

أما اصطلاحا فيعرف المنهج بأنه خطة من الخطوات أو المراحل الموضوعة قصد الوصول الى نتيجة يتوخاها الباحث بعد بذله جهدا علميا وموضوعيا منظما.

و تتنوع المناهج في العلوم الانسانية بتنوع طبيعة موضوعات البحث، وتنوع أهداف الباحثين وخلفياتهم النظرية التي توجه غاياتهم البحثية، وخاصة اذا كانت لهم اهداف مبطنة، ومواقف مسبقة.

لقد استخدم دعاة التغريب وسائل ومناهج عديدة في تعاملهم ومعالجتهم لقضايا الفكر الإسلامي، نظرا إلى تنوع الموضوعات التي تناولوها، والمجالات التي استهدفوها، ولذلك كّيفوا لكل مجال مناهجه ووسائله.

وفي هذا التحليل سنعمل بكل تجّرد وموضوعية على إثبات تلك الأعمال التي ذكرناها، من خلال تتبعنا للمناهج المختلفة، كما سنمثّل لمواطن التعسف في استخدامها.

1- المنهج العَلماني:

[1]) قرآن كريم: المائدة 48.

يرتبط هذا المنهج بالفلسفة العلمانية ونشأ في أحضانها، التي ظهرت نتيجة الصراع الذي حدث في المجتمعات الغربية، بين الكنيسة والمجتمع المدني، إذ كانت الكنيسة في القرون الوسطى تمارس سلطة دينية ودنيوية، وفق نظام تيوقراطي، يجعل من البابا ممثلا للإله، و تفسّر أفعاله على أنها أوامر إلهية.

لهذه الأسباب وغيرها، حدثت الثورة على سلطة الكنيسة، وتّم الفصل بين السلطة الدينية والسلطة المدنية، وأصبحت العَلمانية فلسفة ومنهجا للتعامل مع القضايا تعاملا لادينيا.

وإذا كان المنهج العلماني قد ظهر لأسباب تاريخية خاصة بالحضارة الغربية، وتجاوزات الكنيسة آنذاك، فإن الأمر يختلف تماما في الحضارة العربية الإسلامية، ورغم ذلك يعّمم استخدام هذا المنهج في قضايا الفكر الإسلامي، مع ما في ذلك من تعسف ظاهر.

إذ يختلف الإسلام عن المسيحية، فالإسلام يؤكد على التوحيد والعلاقة المباشرة بين العبد وربه دون أي واسطة، فلا رهبانية في الإسلام ولا رجال دين يحتكرون الإيمان.

وعليه فإنه: من الخطأ الحكم على الإسلام بما يحكم به على المسيحية، ولكن لا يعترف بعض المستشرقين بالفروق بين الإسلام والمسيحية، ويرجع ذلك إلى الجهل بعقيدة الإسلام وشريعته من جهة، وإلى آثار التعصب الديني ضد الإسلام لدى العلمانيين منهم من جهة أخرى، كما يعود ذلك إلى طبيعة منهجهم وفلسفتهم العلمانية التي لا تعترف بالدين أصلا، رغم أنهم يغلّفون منهجهم بمصطلحات العلمية والموضوعية.

لذلك استطاع المنهج العلماني بشعاراته العلمية أن ينفذ إلى كثير من مجالات الفكر الإسلامي، وتم تمريره أثناء الوجود الاستعماري في العالم العربي، والتبشير به كمنهج علمي موضوعي، لإبعاد المضامين الأخلاقية والدينية عموما من مناهج التعليم، وإبعاد التعليم الديني واعتباره لا علاقة له بمتطلبات الحياة.

والحقيقة أن استخدام هذا المنهج في قضايا الإسلام من عقيدة وشريعة وتاريخ وأخلاق، فيه تعسف كبير، وتجاوز خطير لطبيعة الحقائق الإيمانية والروحية، التي تختلف في الإسلام عنها في الديانات الأخرى.

كما استخدم في القضايا الاجتماعية، فتّم تفريغ البرامج التربوية، والقوانين التشريعية، في المعاملات الاجتماعية والاقتصادية من روحها وقيمها الإسلامية.

وقد كان الغرض من استخدامه، إلغاء كثير من الحقائق الإسلامية، وإلحاقها بالعقائد المسيحية، مما أدى إلى نتائج خطيرة، منها: التشكيك في النبوة والوحي، رفض التشريع الإسلامي، الحط من شأن اللغة العربية واعتبارها مصدر تخلف، وأن تطويرها يتم وفق منهج غربي، وغير ذلك من الشبهات التي ردّدها ولا يزال المستشرقون ومن تأثر بهم.

2-المنهج المادي:

يعتبر المنهج المادي حصيلة تطور المنهج العلماني، إذ أن هذا الأخير وإن انفصل عن الحقائق الإيمانية وقام بمعاداة الدين وحصره في مجالات ضيقة، فإنه لم يلغ وجوده، وبقي التعايش بينهما وهذا ما نلاحظه في المجتمعات الغربية الرأسمالية.

فقد مهّد الاتجاه العلماني لظهور الاتجاه المادي، الذي ظهر بقوة، وتجسّد كفلسفة وكمنهج في الماركسية، التي قدمت نفسها كنظرية علمية كفيلة بحل تناقضات الرأسمالية، ومشاكل المجتمعات الإنسانية.

إذ مع بداية القرن العشرين، وانتصار الماركسية في روسيا القيصرية، أصبح المنهج المادي الماركسي يقّدم - وفق قوانين الجدل - على أنه أدق نظرية علمية، لتفسير (التاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع السياسي..)[1] وفق منظور مادي وتطور وسائل الانتاج تاريخيا وما تبع ذلك من تغيرات في الفكر.

وبعد ذلك أصبح المنهج المادي نمطا يكتسح العالم، كبديل للفلسفات والمناهج الأخرى، مدعوما بظروف سياسية واقتصادية،[2] وشحنة من الشعارات العلمية والاجتماعية.[3]

وحاول البعض في تعسف ظاهر، البحث عن فكرة الاشتراكية في الإسلام، وتأويل النصوص الشرعية للتوفيق مع بعض قضاياها.

واستطاع هذا المنهج أن ينفذ إلى مجالات التطبيق السياسي، بتبنّي بعض الدول العربية للاشتراكية كوسيلة للتنمية، ومحاولة تطبيقها كاقتصاد مع احترام عقائد الدين (مع ما في هذه المحاولة من تعسف).

وأصبحت الماركسية في الستينيات وبداية السبعينيات صرعة ذلك العصر، ووجهة كثير من المفكرين لإحداث التغيير والتقدم في المجتمعات العربية، ومثال ذلك ما أقتنع به في تلك الفترة المفكر المغربي المعاصر (عبد الله العروي) بقوله: « الأمة العربية محتاجة في ظروفها الحالية إلى تلك الماركسية بالذات، لتكّون نخبة مثقفة قادرة على تحديثنا ثقافيا وسياسيا واقتصاديا.» [4]

3-المنهج التلفيقي:

---

[1]) ينظر جورج بوليتزر وآخرون، **أصول الفلسفة الماركسية**(جزءان)، ترجمه: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت . صيدا، ب ت.

[2]) ظروف حركات التحرر، وتأييد الإتحاد السوفياتي لدول العالم الثالث ضد المعسكر الرأسمالي، دفع كثير من تلك الدول إلى اعتماد النظام الاشتراكي بعد تحررها من الاستعمار

[3]) قدمت الماركسية نفسها على أنها نظرية علمية لتفسير الاقتصاد والتاريخ، وصاحبتها مصطلحات التقدم، والعدالة الاجتماعية، والتحرر والتطور الاجتماعي.

[4]) عبد الله العروي: **العرب والفكر التاريخي**، دار الحقيقة، بيروت، 1973، ص71.

وهو منهج يستخدم كل الوسائل والخطوات لتحقيق أهدافه، والغاية عنده تبرر الوسيلة، إذ يمتاز هذا المنهج باستخدام الشبهات المختلقة للحط من قيمة وتميز الحضارة العربية الإسلامية.

فقد وُجد لهذه الغاية، فهو يعتمد كل الوسائل الممكنة ولو كانت تجافي المنطق والعقل والأخلاق.

وقد ركّز هذا المنهج بطبيعته الهجومية منذ البداية، على تهميش وتقزيم الحضارات الشرقية، في مقابل اعتبار الحضارة الغربية هي المركز والأصل، وما عداها تابع مهمّش.

شاع استخدام هذا المنهج في الدراسات المختلفة التي قام بها المستشرقون، في مجالات الاقتصاد، والفلسفة، والتاريخ، وعلم الإنسان، وطبيعة منهجهم، هي تغليف النتائج باسم المنهجية العلمية، والموضوعية، لإعطاء فكرة مفادها أن إنجازات العقل البشري في كل مجالات الفكر الإنساني، لا تخرج عن العقل الغربي، أو ما يطلق عليه الحضارة (الهيلنو -أوربية)، وبالتالي السقوط في عقدة التمركز الأوربي.[1]

و أدّت تطبيقات هذا المنهج، إلى ظهور نتائج خطيرة منها على سبيل التمثيل:

- نفي الفلسفة والتفلسف عن شعوبنا، وإن وجد فكر إبداعي أرجعوه إلى أصول يونانية غربية وفق نظرة عنصرية.

- إرجاع الإسلام إلى أصول مسيحية أو يهودية، واعتبار التشريع الإسلامي مستمدا من أصول رومانية، أو منطق يوناني.

- تلفيق بعض قضايا التاريخ الإسلامي بغرض تشويهه، واعتباره تاريخ فتن، وفرق واختلاف.

- إحياء وقائع تاريخية معينة، وحوادث محدودة في التاريخ، واعتبارها الأساس، بناءا على روايات شاذة وشهادات خاطئة. [2]

واستطاع هذا المنهج أن يكّون رأيا عاما غربيا معاديا لنا ولفكرنا، كما امتد التأثير إلى أبناء الثقافة العربية الإسلامية أنفسهم.

ولعلّ ما يحدث اليوم من تجاوزات إعلامية على عقائد ومقدسات المسلمين خير دليل، على استخدامات هذا المنهج، كالرسوم المسيئة للنبي(ص)، أو الأفلام المسيئة للمسلمين، أو الاعتداءات المتكررة على القرآن، أو على المسلمين ودينهم، ورموزهم، ومقدساتهم، كلها تصب في إطار واحد هو عمل الدوائر والمجموعات المعادية لثقافتنا لتكوين رأي عام غربي يعادي الإسلام، ومع ذلك تبقى حالات محدودة لا تمثل إلا أصحابها.

---

[1]) ينظر في ذلك سمير أمين: **التمركز الأوربي نحو نظرية للثقافة**، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1992.

[2]) ينظر: مجموعة من الباحثين، **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية**، (في جزأين) المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985.

4- المنهج الجدالي:

إذا كان المنهج السابق يعتمد على التلفيق، ورد معطيات الثقافة العربية الإسلامية إلى الحضارة الغربية، فإن المنهج الجدالي هو منهج إثارة وتصيّد للشبهات، والبحث عن النقائص والعثرات، للإنطلاق منها في بناء المماحكات والمهاترات والمجادلات، وذلك لتحدي المسلمين في عقائدهم وأفكارهم وثقافتهم، وهو منهج قديم اعتمده المبشرون الأوائل (كريموند لول) (1232-1316م)، والمحدثون (كالأب هنري لامانس) (1862-1937م)، وكثير من أتباعهم.

برز هذا المنهج في وسائل الإعلام والصحافة، والآداب والأفلام التي تصوّر العرب والمسلمين بشتى الأوصاف الشائنة، إذ « كثيرا ما يرتبط العربي إما بالفسق أو بالغدر والخديعة المتعطشة للدم، وظهر منحلا... تاجر رقيق، راكب جمال، صراف، وغد، متعدد الظلال: هذه بعض الأدوار التقليدية للعربي في السينما (الغربية).» [1]

إن طبيعة المنهج الجدالي هي الهجومية واعتماد المماحكات اللفظية، والتشكيك في العقائد أو المبادئ الأساسية في ثقافتنا، إذ « تنشر الكتب والمقالات بانتظام عن العرب والإسلام، دون أن تمثل تغييرا إطلاقا بالقياس إلى المماحكات التي سادت القرون الوسطى وعصر النهضة.» [2]

وهو ما يبرز أنه منهج استشراقي تبشيري معادٍ صراحة، وبشكل مباشر لقيم مجتمعاتنا، وهذا المنهج مفضوح نتيجة طبيعته العدوانية الصريحة لمقوماتنا، ولذا يرى (مالك بن نبي) (1905-1973م) أننا لم نكن نجد صعوبة كبرى في الرد عليه لوجود تلقائية الدفاع، ورفض الأدب والفكر المهاجم لنا، والرافض لمقوماتنا الفكرية.[3]

5- المنهج التاريخي:

الاهتمام بالتاريخ أمر طبيعي عند كل أمة، لأن التاريخ هو الذي يحفظ تميّزها وهويتّها ولذا يقال التاريخ ذاكرة الأمة، والحقيقة أنه لم تهتم أمة من الأمم بالتاريخ كما اهتمت به الأمة العربية الإسلامية نظرا إلى ارتباط مفهوم التاريخ بالإسلام لدى المسلمين.

ونظرا إلى ثراء التاريخ الإسلامي، فقد استخدم المنهج التاريخي للتأريخ لمذاهب وتيارات وشخصيات هدامة، كما استخدم هذا المنهج لتأكيد أفكار مسبقة، ومواقف خاطئة، كاعتبار تاريخ الإسلام تاريخ حروب وفتن وتيارات وفرق، والتركيز على هذه المحطات واعتبارها أساس التاريخ الإسلامي، وإغفال غيرها من العصور الوسطى الذهبية.

---

[1]) إدوارد سعيد: **الاستشراق**، تعريب: كمال أبي ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، 1984، ص287.

[2]) المرجع والموضع نفسه.

[3]) Malek Ben Nabi : **L'œuvre Des orientalistes son Influence sur la pensée Islamique**, université d'Alger, S.D, 24 pages, Mosquée des étudiants de l'université d'Alger, p6.

كما يستغل هذا المنهج في ميدان الفكر الفلسفي في الإسلام، لإثبات أنه لا فكر ولا فلسفة إلا الفكر والفلسفة اليونانية.[1]

وأن الفلسفة الإسلامية مقلِدة لا إبداع فيها، ولم يكن الاهتمام بالفكر الفلسفي في الإسلام لذاته، وإنما لخدمة فكرة مركزية الحضارة الغربية، ولإثبات أن الفلسفة الإسلامية تشكل حلقة حفظت في اعتقادهم الفلسفة اليونانية من الاندثار ثم نقلها إلى أوربا لا أكثر.

لم يستخدم كثير من المستشرقين المنهج التاريخي لإحياء التراث الفكري الإسلامي كما يعتقد البعض خطئا، وإنما كمنهج استكشاف لما يعتقدونه فكرا يونانيا أو أوربيا في الفكر الإسلامي.

وينتج عن ذلك نفي أي إبداع أو أصالة في الحضارة العربية الإسلامية، كما أعتمد على المنهج التاريخي لمعرفة العقيدة والشريعة، من خلال نصوصها الشرعية وتراثها الفكري، وذلك لاصطياد الشبهات والروايات الضعيفة، لاعتمادها في الهجوم على الإسلام.

6- المنهج التمجيدي:

وهو من أخطر مناهج التغريب، لأنه يستطيع أن ينفذ ويخترق نسقنا الدفاعي، ويؤثر على المفكرين المسلمين، وعلى الناس العاديين، وذلك لأن هذا المنهج يعتمد على المدح والتفخيم والتبرير المبالغ فيه للحط من قيمة الموضوعات الإسلامية التي يدرسها.

وقد امتد تأثير هذا المنهج إلى بعض المفكرين المسلمين الذين اقتنعوا بكثير من أطروحات وفروض ونتائج أصحاب المنهج التمجيدي.

إن الأعمال التي قدمها المستشرقون والمفكرون الغربيون في إطار هذا المنهج التمجيدي، تقدم دائما على أنها في صالحنا، وأنها بريئة من أي غاية تغريبية، وأنها تستخدم آخر ما وصل إليه العلم من مناهج ووسائل، ولذلك استطاعت تلك الأعمال أن تصير مرجعا ومصدرا في البحوث التي يقدمها بعض مفكرينا.

إذ يقول مثلا المفكر العربي المعاصر (عبد الله العروي): « إن الايدولوجيا العربية لا تنمو إلا بالتفاعل المتبادل مع الحركة الاستشراقية...إذ أن عمل**(لويس ماسينيون Louis Massignon)(1883،1962م)** وأعمال أولائك الذين ينتسبون إليه صراحة أم لا، هي الأعمال الأشرف والأروع والأقرب إلى قلوبنا، التي أنتجها اتصال أوربا بالشرق العربي.» [2]

ويمكن الإشارة إلى إبراز تطبيقات هذا المنهج في أعمال المستشرقين لإحياء التراث العربي الإسلامي، إذ لم يقتصر هذا الإحياء في العلوم الطبيعية، بل امتد إلى العلوم الدينية التي نصّب

---

[1]) ينظر ج . دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1981، ص51.

[2]) عبد الله العروي: **الايدولوجيا العربية المعاصرة**، تعريب: محمد عيتاني، دار الحقيقة، بيروت، ط4، 1979، ص 112، 113.

المستشرقون أنفسهم أساتذة فيها، من خلال توثيق كل أعمالهم وبكل أخطائها في كتب ومؤلفات وموسوعات، أصبحت في نظر بعضهم مرجعا في قضايا الإسلام، وخاصة بظهور (دائرة المعارف الإسلامية)[1] التي حرّر موضوعاتها مستشرقون أوربيون.

بل وصف المستشرقون أعمالهم بالعلمية والموضوعية، ويبدو ذلك أيضا من خلال تسمية مباحثهم عن الشرق الإسلامي (بعلم الإسلام) Islamologie ليتم الترويج إلى أن نتائجهم وأحكامهم صحيحة ودقيقة ولها مصداقيتها وقد أشرنا إلى ذلك سابقا.

وقد كان لهذه الأعمال التي ظاهرها الرحمة وباطنها العذاب التأثير الكبير على ثقافتنا العربية الإسلامية، وإن لم تخل تلك الأعمال من آثار إيجابية لم تكن مقصودة لذاتها، وهي تنبيهنا إلى كثير من آثارنا الفكرية وتحفيز بعض مفكرينا على البحث والتنقيب. دون أن ننسى الإشارة إلى بعض الأعمال الموضوعية التي قام بها بعض المنصفين من المستشرقين، إلا أنهم يمثلون قلة قليلة، ليس لها تأثير على المؤسسات أو الرأي العام الغربي.

ونتجت عن المنهج التمجيدي الذي يصوّر الماضي الإسلامي الزاهي آثار خطيرة، فهو يجعل المجتمع العربي الإسلامي يعيش على ذكريات الماضي فقط، دون أن يبدع شيئا في الحاضر، « وتسقط شخصية المسلم في دوامة تذوق عجائب الماضي، دون أن تتعلم الفعالية في التفكير.» [2] وقد عبر المفكر (مالك بن نبي) عن تلك الحالة من الاستلاب بالقابلية للاستعمار، وهي حالة من عقدة الدونية التي تجعل من الشخص ينقاد طواعية لغيره، ممن يعتقد فيه الكمال والقوة والغلبة، على رأي العلامة (عبد الرحمان بن خلدون) في انقياد الغالب للمغلوب في شعاره وزّيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده. [3]

7- المنهج الانتقائي:

وهو منهج يعتمد على اختيار موضوعات بعينها وإثارة الشبهات حولها، أو دراسة شخصيات منتقاة من التاريخ الإسلامي لأهداف محدّدة يعمل الغزو الفكري على تحقيقها.

المنهج الانتقائي منهج تجزيئي، فهو يتناول الموضوعات خارج سياقها التاريخي والاجتماعي، ويطلق عليها أحكاما وفق ظروف العصر، أو من خلال نظريات حديثة لم تثبت صحتها أصلا.

---

[1]) وهي دائرة معارف تجمع شتات الدراسات التي قام بها المستشرقون عن العرب والإسلام والمسلمين، كانت الدعوة إلى إنشائها سنة 1895 على أن تكون محررة باللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية وتعاقب في الإشراف عليها أكبر المستشرقين.

[2]) Malek Ben Nabi : op.cit, p 6.

[3]) ينظرعبد الرحمان بن محمد بن خلدون: مقدمة بن خلدون، مؤسسة الأعلمي للمطبوعات بيروت، لبنان، ب ت، ص147.

وقد اعتمد الاستعمار الفرنسي في المغرب العربي على مثل هذه الدراسات لتحقيق كثير من أهدافه، سواء باعتماد الدراسة السوسيولوجية للمجتمع في دول المغرب العربي، كأعمال (روبير مونتان، وجاك بيرك) [1]عن البربر وذلك لتغريبهم، وقد أفشلت الحركة الوطنية تلك الأهداف، مما دفع (جاك بيرك)(توفي1995) إلى القول: « كنا ندرك الشمال الإفريقي انطلاقا من منظورنا، في حين أنه ينبغي إدراكه في إطار مشاكله الخاصة وتعقده الداخلي، وفي كلمة واحدة يتوجب فهمه انطلاقا من منظوره الخاص، أي من تأويلاته الخاصة بالأساس.» [2]

ويبرز هذا المنهج في انتقاء المستشرقين لشخصيات، أو تيارات فكرية هدامة من تاريخنا، واعتبارها الأساس، ثم بناء كثير من النتائج على تلك الاختيارات الشاذة.

8) المنهج التحليلي:

ونقصد به المنهج التحليلي الفردي الذي يقوم بتحليل الشخصيات. وهو منهج من المناهج المعاصرة التي استفادت من إنجازات العلوم الاجتماعية، وخاصة علم الاجتماع وعلم النفس، وتوظيف تلك المعطيات الجديدة في تحليل الشخصيات خاصة.

وقد استخدم هذا المنهج في دراسة كثير من الشخصيات الإسلامية ابتداء من النبي(ﷺ) والعلماء والمفكرين والمتصوفة...

وقد تخصّص بعض المستشرقين في دراسة بعض الشخصيات زمنا طويلا حتى صاروا يعرفون بها (كماسينيون والحلاج، أرسنت رينان وابن رشد، آسيان بلاسيوس وابن حزم، وهنري لاوست وابن تيمية...إلخ).

لكن لم يكن الهدف الإعلاء من قيمة الشخصيات الإسلامية، بل لخدمة الفكر الأوربي لأنه « إذا حدث أن أهتم بفلاسفة عرب أو مسلمين، فكثيرا ما يعمل على التشكيك في إبداع هذه الشخصيات أو تنسب أعمالهم إلى غيرهم من اليونان. [3] »

ومن أمثلة ذلك محاولة (إميل فيليكس قوتيه) (1864-1940م) إرجاع الإبداع عند (ابن خلدون) إلى الحضارة الغربية، ونفس الشيء يقال عن (ابن رشد) حيث يحاول (رينان) إرجاع عقلانيته إلى طبيعة الأندلس، أي المناخ الغربي والتحرر من تأثير الدين.

---

[1]) روبير مونتان Robert Montagne (1893، 1954م) باحث فرنسي، من أوائل الذين اهتموا بالنزعة البربرية أثناء الاستعمار، قدّم أول أطروحة حول البربر سنة 1930 بعنوان (البربر والمخزن) (Les Berbères et le makhzen dans le sud du Maroc). وجاك بيرك Jaques Berque (توفي1995) مستشرق فرنسي اهتم بقضايا العرب وشمال إفريقيا، من كتبه (العرب Les Arabes) (والبنيات الاجتماعية في جبال الأطلس Les Structures sociales du haut Atlas

[2]) عبد الصمد الديالمي: بحث ملامح تطور السوسيولوجيا في المغرب، في كتاب **نحو علم اجتماع عربي**، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1986، ص 298.

[3]) محمد عابد الجابري: الرؤية الاستشراقية في الفلسفة الإسلامية، في **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985، ج 1، ص 319، 320.

أما (لويس ماسينيون) (1883-1962م) وإعلاؤه لشخصية (أبي منصور الحلاج)(244-305هـ) (857-922م)، فليس لقيمة هذا المتصوف في حد ذاته، وإنما لاعتبار تصوفه تصوفا غنوصيا (حلوليا) وبالتالي يرجعه (ماسينيون) إلى المسيحية، ويبرز فكرة الحلول التي تتأسس عليها عقيدة التثليث النصرانية. ومنه تتكشّف طبيعة المنهج وطريقة استخدامه خدمة لأهداف مسبقة، وليس لإنصاف وتقدير الشخصيات الإسلامية.

9) منهج تحليل النصوص:

وهو من المناهج الحديثة التي استفادت من إنجازات وبحوث العلوم اللغوية أو اللسانيات، لأن هذا المنهج يعتمد أساسا على تحليل النصوص. يهتم هذا المنهج بالبنية اللغوية، أي تحليل الألفاظ ودلالاتها وأبعادها العلمية، والتحقق من نسبتها لأصحابها، وصحة تاريخها، وأبعادها المنطقية والاستدلالية، وهو منهج نقدي تفكيكي دقيق.

ولما كانت قضايا الفكر الإسلامي مرتبطة بالتراث العربي الإسلامي، فإن استخدام هذا المنهج بدا ضروريا، للتعامل مع النصوص الشرعية (القرآن والسنة النبوية والتراث النقلي عموما)، وخاصة بتحليل المخطوطات والمؤلفات الفلسفية والعلمية والتاريخية التي تركها العرب والمسلمون.

وقد تناول المستشرقون المجال الروحي والنصوص الشرعية، مشككين في صحة الأحاديث تارة، كما فعل (جوزيف شاخت)، أو في حقيقة الوحي كما حاول متعسفا (مونتوغمري واط)، كما نشير إلى مثال آخر نراه يثبت التعسف، ويبّين سقوط بعض المفكرين العرب تحت تأثير هذه الشبهة الاستشراقية، وهو ما قدمه (محمد أركون)[1] في ما يطلق عليه نقد العقل الإسلامي، حيث يدعو إلى إعادة قراءة القرآن والتفسير وأصول الفقه، والعلوم الإسلامية الأخرى.

وقد أثبتنا سابقا أن استخدام المستشرقين لهذه المناهج له أهداف مسبقة، وأغراض سيئة في أغلب الأحيان، تحركها مركزية أوربية، وعصبية خفية ترفض أي إبداع يخرج عن دائرة الحضارة الغربية. ورغم تلك الأهداف الاستشراقية، والنتائج الملفقة، إلا أن البعض يعتقد أن اعتماد تلك المناهج والأعمال ضروري، بل يجعل (محمد أركون) من الفكر الاستشراقي فكرا علميا مطلقا، إذ يقول: « بدأ العلماء المسلمون يتجهون اتجاها علميا سليما مسايرا للعلوم الحديثة، ولكن عددهم قليل جدا...وأضف إلى ذلك أنهم لم يتمتعوا بعد بالحرية الضرورية للفكر والنشر والنقد. ولذا لا يزال الفرق والتباعد يزداد بينهم وبين المستشرقين، أي بين الفكر الإسلامي المعاصر، والفكر العلمي بصفة عامة.» [2]

---

[1]) محمد أركون (1928- 2010): مفكر معاصر جزائري الأصل فرنسي الجنسية، شغل مدير مركز الدراسات الإسلامية بباريس، وقد شغل أستاذ الفلسفة الإسلامية بجامعة السربون الفرنسية.

[2]) محمد أركون: بحث: **نحو تقويم واستلهام جديدين للفكر الإسلامي**، في الخطة الشاملة للثقافة العربية الإسلامية، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، 1986، المجلد 3، القسم1، ص12..ذ

وتبرز الرؤية الاستشراقية في اعتبار (أركون) أن البحث العلمي منعدم في الجامعات الإسلامية، وأنه موجود فقط في الجامعات الغربية، ودفعا للالتباس فهو يقصد ذلك في العلوم الإسلامية، إذ يقول:« والبحث العلمي في هذا الميدان يستدعي اعتناق موقف ابستمولوجي لم يفكّر فيه بعد في الفكر الإسلامي، ولن يمكن التفكير فيه مادام التيار التقليدي الدوغماتي متغلبا اجتماعيا وسياسيا، على حرية الفكر وحرية الانتقاد. أقصد هنا حرية إعادة النظر في جميع ما يتعلق بعلم الأصول، لانتقاد فكرة الأصل في الفكر الإسلامي.» [1]

والسؤال الذي نطرحه ما الفائدة العلمية من رفض (الأصول) في الفكر الإسلامي، وهدم العقائد، والتشكيك في الحقائق الإيمانية ؟

وليس بعيدا عن ذلك ما ذهب إليه (طه حسين)(1889-1979م) في الأربعينيات حين ألف كتابه في الشعر الجاهلي، الذي شكّك فيه في الحياة الجاهلية، ودعا إلى التغريب وتقليد أوربا في كل شيء متأثرا في ذلك بالمدرسة الفرنسية وأساتذته من المستشرقين.

ولكن تراجع فيما بعد عن نزعته التغريبية، وظهر ذلك في إسلامياته وعودته إلى التراث الإسلامي.

كما تأثر بعض المفكرين المسلمين بتلك النزعة العلمانية، والرؤية الاستشراقية، وبهرتهم بعض المناهج العلمية (كالمنهج الفيلولوجي أي منهج تحليل النصوص)، واعتقدوا أن هذه المناهج كفيلة بحل كل الإشكاليات والإجابة على كل المسائل، بغض النظر عن طبيعة الموضوعات المتعامل معها.

ومع أن الموضوعات الحسية تختلف عن الموضوعات المعنوية، ولكن هذه المناهج تطّبق على الإسلام وقضاياه بشكل تعسفي، رغم أن كبار فلاسفة العقلانية يقّرون بعدم قدرة العقل على إخضاع قضايا الميتافيزيقا للنظرة الحسية المادية، وهذا ما أكده الفيلسوف الألماني (إمانويل كانط E-Kant)(1724-1804م) الذي دعا إلى التسليم بوجود الميتافزيقا، لضمان وجود الأخلاق، لأن ذلك لا يمكن اثباته ماديا بالعقل النظري، وإنما إدراكه بالممارسة بالعقل العملي. [2]

الخلاصة:

ما يمكن ملاحظته، بعد تحليلنا لبعض المناهج أن بعض المستشرقين يدّعون استخدام منهج علمي موضوعي، في حين أن تتبع محاور بحوثهم وأعمالهم يكشف لنا أنها تتنافى مع ما ادّعوه من معايير منهجية في بداية أعمالهم، ونستطيع أن نعتبر ذلك خطوة من منهجية الغزو الفكري وهو ادّعاء منهج علمي وموضوعي ثم مخالفته أو هدمه بعد ذلك في إطار البحث. كما ثبت لنا من تحليل مناهج التغريب والغزو الفكري أنها مناهج جزئية، لأنها وسائل تستخدم بطرق مختلفة ونتائجها ليست بالضرورة صحيحة ويقينية، هذا إذ استخدمت بشكل جيد، إذ حتى النتائج العلمية نسبية، فما بالك إن

[1]) المرجع والموضع نفسه .

[2]) ينظر إمانويل كانط: **تأسيس ميتافزيقا الأخلاق**، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية، ط2 بيروت 1970.

كانت في ميدان العلوم الإنسانية. ورغم ذلك تصدّر إلينا تلك المناهج والنتائج كحقائق، برغم أنها تتحرك _كما أشرنا_ وفق أهداف مشبوهة، ولذلك تفقد قيمتها العلمية.

زيادة على أن كثيرا من هذه المناهج ترتبط بنظريات في العلوم الإنسانية، تحتاج هذه النظريات في حد ذاتها إلى إثبات نتائجها وفروضها، وبالتالي يصبح تعميم تلك النتائج وإعطاؤها الصبغة العلمية أمرا مبالغا فيه، ومع ذلك لا يتوانى مستخدمو تلك المناهج من التعسف في استخدامها، مما يثبت ا لنيات المبيّتة، والأفكار المسبقة، والتحيّز والذاتية التي تتنافى والروح العلمية التي يجب ان يتحلى بها الباحث العلمي النزيه، وعليه نحن بحاجة إلى تشجيع البحث العلمي النزيه، وفضح البحث العلمي المسيّس الذي يستهدف أغراضا غير علمية، وخاصة مع انحصار النزعة الاستعمارية(الكولونيالية) التي مّنت الكثير من المستشرقين وعلماء الغرب في فترة الاستعمار، الذي برّروه واعتبروه محررا للشعوب من التخلف والجهل، وسقطت هذه الأطروحة اليوم بسيادة قيم العدالة والتحرر، وحقوق الانسان.

كما نبدي تقديرنا للإقبال في الغرب على دراسة الحضارة العربية الاسلامية، من جمهور واسع، لم يعد من المتخصصين فقط، ولم تعد تحركهم دواع استعمارية أو تبشيرية، بل أسباب ذاتية ومعرفية، مما نتج عنه أعمال موضوعية، وعليه نّوه بتلك البحوث المنصفة لحضارتنا، رغم أنها لا تشكل إلا جزءا ضئيلا ومحتشما، في وسط تراكم في فترات سابقة لكّم هائل معاد في أغلب الأحيان لحضارتنا، ومع الأسف هو الذي يشكل الرأي العام الغربي، ويوجّه صانع القرار الغربي، ولذلك يتطلب الأمر تشجيع البحوث العلمية المتوازنة لتصحيح الرؤية، وإعطاء الفكر العربي الإسلامي وجهه الحضاري الصحيح.

لنساهم جميعا في بناء الحضارة الانسانية التي تتحقق بالتعاون والإخاء بين جميع فروعها، وليس بالتطرف والإلغاء بين أبنائها، وخاصة أننا أمة يؤمن أبناؤها بتعارف وتواصل الحضارات، ويرفضون الرأي القائل بتنافر وصدام الحضارات، لأن الحضارة تراكم ثقافي معرفي علمي، ساهمت فيه الانسانية بأكملها وعلى مر العصور.

***قائمة المراجع:**

***المراجع بالعربية.**

1) الكتب :

1. إدوارد سعيد: **الاستشراق**، تعريب: كمال أبي ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، ط2، بيروت، 1984.
2. إمانويل كانط: **تأسيس ميتافزيقا الأخلاق**، ترجمة محمد فتحي الشنيطي، دار النهضة العربية، ط2 بيروت 1970.
3. ج . دي بور: **تاريخ الفلسفة في الإسلام**، ترجمة: محمد عبد الهادي أبو ريدة، دار النهضة العربية، بيروت، ط5، 1981.

4. جورج بوليتزر وآخرون: **أصول الفلسفة الماركسية(جزءان)**، ترجمه: شعبان بركات، المكتبة العصرية، بيروت صيدا، ب ت.
5. زكي الميلاد: **تعارف الحضارات**، دار الفكر، دمشق، 2006.
6. عبد الله العروي: **العرب والفكر التاريخي**، دار الحقيقة، بيروت، 1973.
7. ـــــــــــــ: ***الأديولوجيا العربية المعاصرة***، تعريب: محمد عيتاني، دار الحقيقة، بيروت، ط4، 1979.
8. سمير أمين: **التمركز الأوربي نحو نظرية للثقافة**، الوطنية للفنون المطبعية، الجزائر، 1992.
9. مجموعة من الأساتذة: **مناهج المستشرقين في الدراسات العربية الإسلامية** (جزأين)، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، 1985.

2) الندوات والمجلات:

10. الخطة الشاملة للثقافة العربية (مجموعة ندوات شاملة)، ثلاثة مجلدات كل مجلد بأقسامه، نشر المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، الكويت، 1986.
11. ندوة حول علم الاجتماع (نحو علم اجتماع عربي)، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط1، 1986.
12. وقائع ندوة همبورغ، العلاقات بين الحضارتين العربية والأوربية، الدار التونسية للنشر، تونس، 1985.

3) الثقافة، وزارة الثقافة والسياحة، الجزائر، العدد49، فيفري، 1985.

***المراجع بالفرنسية:**

1. Malek Ben Nabi : *L'œuvre Des orientalistes son Influence sur la pensée Islamique*, université d'Alger, S.D, 24 pages, Mosquée des étudiants de l'université d'Alger.